

قال صديقي : حين تصل إليها افتح عقلك وأغلق قلبك .

# تأهله في مومباي

لم أكد اخطو قليلا في شاطئ شوباتي حتى فقدت قدما ، حجبت عني مياه البحر رؤيتهما يسيران بحذر ، مع ذلك يتعمق المئات من البشر وكان سفنهم تنتظر في ساحل ليست الزرقة من سماته متجاهلين كل ما يعكر صلتهم ببحر العرب العميق ليس بفعل الجغرافيا ولكن بفعل التاريخ الذي ساه له لقب زمنية طويلة . لقد حال هذا البحر دون تحقيق آلاف الأحلام لبسطاء أرادوا الوصول إلى ما وراءه لما يفوقهم عددا وحبهم وهم يحاولون التغلب على رياحه العاتية بسفن بدائية قبل عامين اكتشفت حطام سفينة ملقاة في ظلماته منذ ما يزيد عن ألف وخمسمائة سنة لم تكمل الرحلة . قبلها وبعدها شهدت مياهه النهائية لأسفار عديدة كانت تحمل التوابل والحريز لإيصالها إلى اليمن ومنها إلى مصر وبلاد الشام ، لكن أيضا هو ذاته البيم الذي أوصل عشرات الآلاف من الطامحين إلى مبتغاهم ، مكن البرتغاليين وأعقبهم بالانجليز من نيل مرادهم في السيطرة على ممر تاريخي عنيد وعلى قارة مكتملة الأركان ربما كل هذا يفسر قيام بعض من رأيتهم وهم يغترفون بأفكهم من الماء المالح ليشرىوا بعض قطراته عليهم يتذوقون شيئا من أساطيره الحية .

## استطلاع : صقر الصيدي

قالت رسالة موجهة من حاكم مومباي في 1856م إلى الحكومة البريطانية أنه لا يكتمل الإسماك بزماء هذا البحر ما لم تكن الضفة الأخرى تحت السيطرة أيضا وهو ما دفع بالكابتن هنس في العام 1839م إلى تنفيذ أوامر غزو عدن وشراء وإلاء ما حولها من سلطانات .

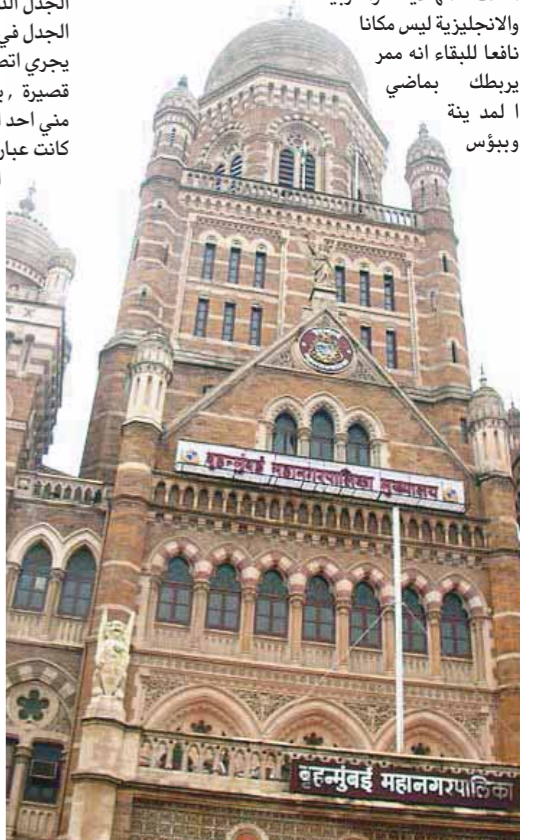
بعد أن استقر القائد البريطاني في الشق الآخر من البحر أخذ الناس يتدفقون إلى الضفة الأخرى ، شاب هندي لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره لا يمتلك غير حلم ومجموعة من خيوط النسيج الهندي طرحته رحلته الأولى في عدن التي اكتفى بيلوها دون العالم مارس التجارة فيها مد اليمينين بما يعشوقون من الألبسة التي تعني لهم الكثير ومدوا له ما يحفظون من الصكوك المعدنية وأطال البقاء بينهم مصطحبا أسرته الصغيرة لسنوات مع آخرين تولوا تسيير أمور التجارة بين الضفتين لكن امباي كان الأقل شهرة بينهم والأوسع اتفاقا امامهم . حين عاد إلى موطنه الأصلي الهند كان قد رزق مولوده

موكيش امباي هذا الطفل هو الآن أغنى رجل أعمال في الهند كلناه وأربع اtriاء العالم تتجاوز ثروته 22 مليار دولار . يظل بمغزله الخبز المكون من ستة وعشرين طبقا على البحر الذي حقق له الخطوة الأولى في سلم النجاح الذي يجتهد لإبرازه والتباهي بثرونه الطائلة ، على سطح منزله مطار يستوعب ثلاث طائرات هيلوكوبتر ، أهدى زوجته في عيد زواجهم المائات طائرة نفاثة 326 مليون دولار خصص لزواره 165 موقفا لسيارتهم حافظ منذ عام على لقب صاحب أغلى بيت في العالم وتنتوي شركاته تصدير 15 % من إجمالي صادرات الهند إلى الخارج . لقد كان كل ما يمكنه الوصول إليه تأمل مسكته من مسافة معقولة و طرح سؤال تقليدي ماذا لو كان استمر في الضفة الأخرى من البحر " عدن " هل كانت ستيقي التقلبات السياسية والاقتصادية على أماله؟

تنتقد مقالات غريبة عديدة ميولات امباي وتعاتب فيه المبالغة والتباهي بممتلكاته خاصة المنزل الممثل أيضا على إحياء سكنها من لا يمتلكون قوت يويمهم . يمكن رؤية التناقض في بر هذه المدينة تنتهي المباني الانيقة والأحياء المترددة على احياء يصعب تصور وجودها بالجوار ، لقد اتضح لي فور وصولنا إلى شارع محمد على رود عدم براءة من تطوعوا بنصحي والتوجه إلى هذا السكان المكتظ بالمعربان وبالزمن لكنه بالفصل واحد من الأماكن التي يفترض أن تختبر مزاج الإنسان وروحـه .

يسحب رجل خمسيني عشرين كرتونا عبر أناة بسيطة عبارة عن خشبتين مثبتتين على عجلتين مصنوعتين من الحديد يحيطهما الرول القاسي ، تدور العجلات كلما تحرك الرجل نحو الأمام مسكاً بحبل يعينه على المهمة أنها الطريقة الوحيدة لنقل البضائع في شارع يصعب فيه حركة السيارات يسير كرتون آخر جوارك أسفل منه يقع رجل بالكاد يتحسس موضعا لقدمه التي يلامس نصفها الإسفلت ، يسابقه حاملو العلب المعدنية الكبيرة المحتوية على أما وجبات طعام او الحليب هؤلاء يعملون ضمن شركة اعتادت على آلية التوزيع إلى الأسواق والمنازل للرسائل الفورية تم تصنيف هذه الشركة الأفضل بين شركات الإرسال على المستوى العالمي من حيث قلة الأخطاء في العمل فيتم ترقيم كل إزاء ووجهته ، تعد الأسر وجبة الغداء وترسلها لأفرادها العاملين في أماكن متفرقة من السوق ولا سبيل غير هذا الطريق الذي تستخدم فيه أحيانا الدراجات الهوائية للوصول إلى المسافات إلا بعد .

مع كل هذا الغليان حيث توزع اشعة الشمس على رؤوس مغلفة بشعر كثيف وازدياد الحركة تجد الجميع على اكمل استعداد لتلك ما بين ايديهم وارشادك إلى ممتكك وبروح راضية وابتسامة قل أن تجدها في أماكن أخرى تتعمق بما يفقد هنا ، فرغم ان من وصلنا قد ادنى مهمته واخذ أجره إلا أنه ما زال تلقاً يردد أن يطعن أننا أصبحنا حيث نريد وكان محقا في ذلك فحمد علي رويد حيث يتقافز إليك الوجه العربي وتتداخل اللغات الثلاث الهندية والعربية والانجليزية ليس مكانا ناعقا للبقاء أته ممر يربطكم بماضي المدينة وبيوس



## شوقون بالجدل

في كل مكان تجد الهندي الشوقون بالجدل المنتقل بين مؤلفات عديدة لكتاب ينتمون إلى شبه القارة الهندية فكل من تسأله عن عنوان او غيره يبذل جهدا لاقتناع وان كنت مقتنعا لكنه يريد ان يرسخ لديك الفكرة ويجعلك تتفاعل مع إيقاع حديثه ومع كلماته التي يفترض أن يراها تترك أثرها على ملامحك ، يصعب تبين هذا المفهوم من الوهلة الأولى ومع سير الوقت ستكتشف انك واقع في دائرة الجدل الذي خلق روح الهند ووفاتها ستلحظ حجم ذلك الجدل في الكلمات الهاتفة التي لا تنتهي معظمهم اما يجري اتصالا أو يبحث عن رقم ليجري مكالمة لن تكون قصيرة ، بينما كنت أريد معرفة ثمن سلعة تجارية اقرب مني أحد الأصوات - هل أنت عربي أنا سعيدا جدا بلقائك كانت عباراته الفصحى تتوالى واجبرني على استخدامها أيضا ، سار المشهد كما لو ان فيلمنا تاريخيا قد بدأ خاصة وأن المباني المحيطة بنا قديمة حين سألته عن سر الجدل القائم لديهم قال " نحن نتجادل ونقنع بعضنا بالكلام ليس لدينا غيره اما انتم فلديكم وسائل أخرى " أححث عليه بأن يوضح وسائلنا الأخرى قال انتم تتقالتون " متوقعا فادعا مني لكفي اكتفي بالتحليل في الجهة الأخرى من الشارع - تعلم الشيخ عبدالله كما احب ان يعرف نفسه اللغة العربية لمدة احدى عشرة سنة في موطنه ودرس أيضا الحديث والفقه ويعمل في أحد المحلات الخاصة ببيع قطع غيار السيارات ، فاجاني وهو يقدم لي هدية اشترتها خلال سيرنا معا حين رفضت رد علي مبتسما تهادوا تحاوبوا .

ليس لدى عبدالله أي اشكال مع اللاديين الاخرى الموزعة في أكثر بلد متعدد اللاديين في العالم حيث تصل إلى 1500 دين ومعتمد تؤخذ الأفكار هناك ببساطة ويمكن لمن شاء متى اراد ان يعلن دينيا جديدا شرط ان يدع للأخرين ما يؤمنون به ، يعود السر إلى القوانين والاعراف والفلسفات التي سنها

مفكرو وملوك وامراء الهند لكل اللاديين حتى المسلمين منهم ، يبسط احد فلسفة الهند سوامي فيفيكاتادا الامر بإيراد مثل يسير ان كانت اصابعي الخمس حقيقة فهي برهان على حقيقة اصابعك الخمس ايضا ، وهو يعني بذلك حسب تفسيره ان برهان دين ما يعتمد على برهان بيقية اللاديين ، على مقربة من محل اقامتنا كانت صورة لأحد الرموز الدينية تتدلى من على غصن شجرة تم تثبيتها بمسامر صغير لا يوقى على تحمل ريح متوسطة كي تسقط الصورة التي تمثل رمزا دينيا للكثيرين لا تحتاج لأكثر من خطأ بسيط يصدر عن شخص غير منتهيه يمس تلك الصورة فيسقط على الأرض إلا أن هذا الخطأ لا يمكن حدوثه - الجميع يظفون حفاظا على المشاعر الدينية للأخر ووجود رمز ديني يعني وجود انسان يعتقد به . حاولت الخوض من شخص اراد كل يوم في الحديث حول المعتقدات وعبرت على المدخل - لا اعتقد انه يوجد بلد آخر أكثر تعددا من بلادكم اليس كذلك ؟ صمت قليلا ثم اجاب لدينا انواع لا تحصى من الارز الهندي متعدد الاشكال .

اعتقدت انه لم يفهم مقصدي فكررت المحاولة هل كل اللاديين والتقالعات مصدرها الهند ا ان بعضها قادم من الخارج ؟

جددا أعادني الرجل إلى التحدي عن الأرز وانه لا توجد مادة أكثر رواجاً منه جميعاً نأكل الأرز ، كرهنا مرتين الأرز المزروع في بلادنا نحبه أكثر وكلما زاد عمره ومدته تخزينه ازدادت لذته ، وحتى تصدقني لك أن تجرب - تيقنت أن كل حديث يسوق إلى التقليل من معتقدات الأخر لن يتم الخوض فيه فسرفلي الصديق محمد عبدالحكيم وهو دارس يعني في بنجلور ما لم اقدر على فهمه " هذا هو ما يجعل الهند بلد تعامش لا احد يقلل من معتقدات الآخر أو يقلل من شأن ما يؤمن به ، كل دين يحترم الأديان الأخرى الهندوسي يحترم المسلم واليهي يقدّر البوذي والمسيحي لا يتهمك على البائني وهكذا تدور المعادلة " .

ياخذك حديث الهندي من مواقع الجدل إلى قمم الاتفاق ، كلنا نأكل الأرز ربما كان يقصد انه مهما اختلفنا إلا أننا جميعا نحتاج إلى ذات المادة الغذائية التي تصنع التوافق فهي ما يفضله اكلو اللحوم من مسلمين وبنائين من سيخ وهندوس " الرئيس الهندي السابق عبدالكلام وهو مسلم أعلن امتناعه عن تناول اللحم تقديرا لفنانات الهندى يبدوا أنهم تعلموا تجارزة وتركة لنا .

يفشل كل من يحاول شق صف أبنائها كل مرة حين حاول الانجليز استخدام الدين لكبح المقاومة برز نجم المهاتما غاندي موحدا لكل الأديان حيث سار في رحلته لكسر حظر استخراج الملح نحو شاطئ داندني مصطحبا معه الآلاف من معتققي الأديان والعقائد المختلفة كان يطوي كل يوم ثلاثين كيلو متراً لبلوغ الهدف وعقودا لطى الصراخ ، ويوم قبض يده السمره على حفلة ملح متحمدا تحذيرات قوات الاحتلال البريطاني التي تقضي بمنع كل هندي من استخراج الملح صرخته معه البلاد بكل فرقها ضد المستعمر الذي لم يكن مهتما بغير ان يظل الملح والتي لا يحق لها ذلك وكانت الهند ممن لا يحق لها استخراج ثروتها من الملح .

زادت تلك الرحلة من قوة اللاعنظ ومن قوة الحق التي انتهجها المهاتما في مواجهة الاستعمار الذي ترك العديد من المباني والمشاريح التي أقامها ولم يتطرف الشعب المنقظ ويقوم بتدميرها باعتبارها من صنع الأعداء كان فعلت شعوب أخرى تمسك كالاطفال طمس اجزائتها في ساعة غضب .

## بوابة الهند

تحجب زحمة الزوار هنا التاريخ المؤلم الذي أنشئت هذه التحفة المعمارية لتخليده ، بوابة الهند أقامها الإنجليز تقديرا لذكري وفاة ما يقرب من 90000 جندي هم قوام الجيش البريطاني الهندي خلال الحرب العالمية الأولى وأيضا بمناسبة زيارة الملك جورج الخامس والملكة ماري وتعد الآن شاهدا على حقبة من تاريخ البلاد ومقصدا للسياحة يكثر عندها الهنود ويتألمون تفاصيلها ومنها يعبرون نحو البحر لتحملهم قوارب متوسطة في جولة سريعة يشاهدوا أبرز معالم المكان . الفندق الأشهر في البلاد المسمى تاج محل والذي تصدر قبل ما يفوق العشر سنوات عناوين الأخبار حين سيطرت مجموعة إرهابية عليه واحتجزت عددا من الأجانب كرهائن وقد فقد عدد من الجنود أرواحهم أثناء محاولة تحرير الرهائن وتحيط أكابيل الزهور صورهم بالقرب من مسرح الحدث .

بالإضافة إلى اليقظة الأمنية المحيطة بالمكان الذي تغلظه أسراب من البشر والحمام وهي تحلق بعلو منخفض في ذلك اليوم المشؤوم لم تغادر الحمام مواقعها بل ظلت تراقب موت السلام . دفع ذلك الحادث الهند إلى اعتماد الشك في بعض الوجوه وعرف جنودها أن عليهم مواجهة القتل ، فمع صعود الصباح تقتش الكلاب البوليسية السيارات



3-1

ثم انطفئ هو أيضا ، أصبحت البناية ذات الأذوار الستة صخرة كبيرة بلا ملامح وبلا ذكرى .

يزداد الشارع وقارا ويوفر لمن ينامون على أرضه الهوى المتماثل تمر سيارات بصورة متقطعة لكنها تنسل دون إحداث ضجة كي لا توقظ الكلب الذي ينام المعروف في العواصم الأخرى فمومباي مدينة تنام مبكرا المكان قبل صاحبة وظل ينتظر دون ان يغضب عينيه وما أن وصل الرجل النحيل وخلع قليلا من ملبسه ليصنع منها وسادة مسح رأس كليه فنام اللانئان معا .

طريقة حياة المدينة تشعرك بأنها تقاسمك همومك تتببع لك السير فيها ركضا أو بطينا دون أن تصدر إليك مخاوفها أو ضجيجها النهارى تعمدت في غالب ليالينا أن اطوي المسافات راجلا ، ادقق النظر في وجوه النايمين والكشوفة شيوخا وأطفالا وشبابا يافعيين هم ذاتهم الحاضرون في أعين الأدب الهندي هم من سيطروا على أعمال سلمان رشدي الأدبية في الصباح يخرجون إلى واقعهم كأبطال حقيقيين يكافحون للعيش الكريم .

أجراس تحضر معها تاريخ قديم للتدين في هذه البلاد - يستيقظ الهندي مبكرا ولا غرابة أن يفتتح يومه بمشاهدة أحد أفلامه المفضلة قبل أن يركض نحو الحصول على رزق يوم جديد في العاصمة الاقتصادية أو سواها من المدن التي خلقت برنامجها اللبلي الذي لا يشمل السهر المعروف في العواصم الأخرى فمومباي مدينة تنام مبكرا وتتبع لك التسكع ليلا بين شوارعها الخالية إلا منك ومن أضواء عالية وبضخ النايمين على أرضيتها بصورة معتادة كما لو كانت إحدى مظاهرها التي تعتاد عليها تدريجيا .

## ما لم تره نهارا .

أجلس على أحد كراسي انتظار الاوتوبس في النهار يصعب أن يكون شاعرا كالألن يكون الجميع متأهبا واللحظة الحالية تمنحك رؤية ما لم تراه نهارا يقابلني منزل مرتفع تم بناؤه قبل مائة وخمسين عاما بدأت تحيطه الظلمة المنقلة من نافذة إلى أخرى وكأنه غرفة واحدة ، بقى في دورة الأخير ضوء هافت للداق



www.ycfms.com

# السنابل

ALSANABEL

غذاء للحياة